Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

عبد الحليم الرهيمي

DİA
Taramada
Nüshası

تاريخ
الحركة الإسلامية في العراق
الجذور الفكرية والواقع التاريخي
(١٩٠٠ - ١٩٢٤)

R.H.H.I

الدار العالمية
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٨٥ م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمراء ـ كومودور سنتر
هاتف ٣٤٩٧١٧ ـ ص.ب. ١١٣/٦٣٨١
لبنان ـ بيروت

الإهداء

الى عزّة .. وأحمد

تقـــديم

الدكتور وجيه كوثراني

[أستاذ التاريخ الحديث في الجامعة اللبنانية ببيروت]

منذ تأسيس الدولة في حدودها الاقليمية ـ الجغرافية في المشرق العربي ، وعلى أنقاض الولاية العثمانية في مطالع القرن العشرين ، وعبر مادة « التنظيمات » التي استوعبتها سياسة الأعيان في عواصم الولايات العربية المشرقية ، بدأ يصاغ خطاب تاريخي يعترض على التجزئة السياسية باسم وحدة التاريخ العربي المشترك ، أو يبرر قيام الدولة الاقليمية على قاعدة جذورها القديمة في التاريخ أو مبررات وجودها كضرورة حتمية في الجغرافية الطبيعية . وجمع بين الخطابين موقف مشترك من المجتمع الأهلي والثقافة التي يختزنها هذا الأخير من قيم راسخة في النص الديني ومن أعراف وتمثلات محمولة في الذاكرة الجماعية . لقد تمثل هذا الموقف في محاولة إلغاء هذه الثقافة من الصورة التاريخية المستحضرة أو التقليل من أهميتها لصالح أيديولوجية نخب الدولة أو نخب السلطة المنشودة ، سواء كانت هذه السلطة سلطة أعيان أو سلطة طبقات وسطى ، وسواء كانت أيديولوجية هذه السلطة أيديولوجية قومية علمانية أو أيديولوجية ماركسية أممية .

فمن التقليل من أهمية دور الاسلام في الثورة ضد الاستعمار الغربي ، إلى إلغاء دوره أحياناً ، في استنهاض الشعوب ، إلى توظيفه رمزاً فولكلورياً ، إلى استخدامه « إنتهازياً » وكفرصة تاريخية تحتمها « الضرورة » في مسار طموح بعض النخب للسلطة . . . يعبّر أمام قارىء التاريخ العربي المعاصر وأمام الباحث في هذا التاريخ ـ إذا استثنينا بعض كتب الإخباريين الذين أخلصوا في وصف الحدث ـ شريط ذو لون واحد ولغة واحدة تكرر مقولة : « غياب القيادة الثورية والنظرية الثورية »، وهو غياب يعكس الاصرار عليه من قبل أصحاب الخطاب التاريخي المعاصر تماهياً مع دور تطمح « النخبة » إلى لعبه « كقيادة » بديلة . . فمن ثورة الريف في المغرب بقيادة عبد الكريم الخطّابي إلى ثورة المجاهدين الليبيين بقيادة عمر المختار ، إلى ثورة المجاهدين في بلاد الشام ، إلى ثورة العراق بقيادة مجتهدي النجف، إلى ثورات وانتفاضات أخرى لا حصر لها يُطالعنا العديد من كتب التاريخ بموقف يكاد يلغي المحرك الأساسي لهذه الثورات ، فتغدو أسباب الثورة مصالح وطبقات ، ويكاد يُغفَل الجانب التدميري في وسائل المستعمِر فتعزىٰ أسباب الفشل إلى نقص في « الأهلية الثورية » لدى القيادة ، أو إلى غياب « للايديولوجيا العلمية » التي حصّلها لاحقاً

« المثقف الثوري » وحده .

ويصبح التاريخ ، ولا سيما التاريخ المعاصر ، وفقاً لذلك مسرحاً للصراع الأيديولوجي يُتواصل معه عبر الايديولوجيا واللغة السياسية الراهنة ، ويُستحضر في الوعي الفردي عبر « النظرية الجاهزة » والمشروع السياسي المطروح . بذلك تضخم أدوار (أدوار النخب المدينية في المشرق العربي المتمثلة بالجمعيات مثلاً) وتطمس أدوار أخرى (أدوار المجتهدين والمشايخ والحوزات العلمية . .) ويُبرز الصراع الاجتماعي صراعاً اقتصادياً بحتاً (كما هو الحال لدى الماركسي) أو يُطمس كلياً (كما هو الحال لدى القومي) ، ولا يُرى أي علاقة له مع الأبعاد الثقافية المرتبطة بأسلوب الحياة وغطها لدى الجماعة : الأفكار ، النصوص ، تنظيم البشر ، عباداتهم ، علاقتهم بالمسجد والامام وبالله . .

لقد وصلت أزمة هذا التأريخ الأيديولوجي إلى ذروتها مع اشتداد أزمة الفكر السياسي المعاصر على اختلاف اتجاهاته في فهم مسار الفشل المتكرر في عملية البناء الوطني والديموقراطي والانساني . . . إنها أزمة بناء الدولة الاجتماعية العادلة في الشرق والعالم الثالث ، لكنها أيضاً أزمة الحضارة الغربية الحديثة في علاقتها بخارجها وبأطرافها . لذلك أضحينا نشهد في العقدين الأخيرين وعلى المستوى العالمي ، وفي مواجهة هذه الأزمة ، محاولات لإعادة قراءة تاريخ شعوب ومجتمعات حكم عليها في عصر الاستعمار الذي لم ينته بعد ، بأنها « لا تاريخية » وبأنها دخلت التاريخ ساعة انخراطها في مجريات تاريخ الغرب الاقتصادي والسياسي والثقافي ، ولذلك أيضاً أضحينا نشهد في العالم الاسلامي والعربي على وجه التخصيص محاولات لإنصاف صانعي التاريخ المعاصر فيه ، عبر الكشف عن دورهم في المقاومة وفي قيادة البشر واستنهاض الطاقات البناءة فيهم . انه كشف عن « تاريخية » هذه المرحلة كي تتواصل مع التاريخ الاسلامي بعد أن بذل جهد نصف قرن تقريباً في طمس الحقائق وتزييف الوقائع واصطناع « تاريخ جديد » في الوعي والنص .

ولا أبالغ إذا قلت هنا إن بحث عبد الحليم الرهيمي في « التأريخ للحركة الاسلامية في العراق خلال الربع الأول من القرن العشرين » يندرج في سياق هذه المحاولات ، ولا يعني ذلك أن الباحث الرهيمي قد سجل سبقاً في التأكيد على دور الاسلام القيادي في ثورات العراق في مطلع القرن الحالي ، فلقد سبق إلى تسجيل هذا الواقع مؤرخون وكتّاب أفاضل أمثال عبد الرزاق الحسني وعبد الله الفيّاض وحسن الأسدي . . . وحيث نلاحظ أن المؤلف قد استقى منهم كثيراً على صعيد التأريخ الحدثي والاخباري ، تبقى مع ذلك ، محاولة الرهيمي تملك خصوصيتها من خلال استمساك الباحث بمستويات ثلاثة في نصاب واحد ، المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، المستوى الفكري والثقافي ، المستوى السياسي والمؤسسي . ومع أن المؤلّف يفرد لكل مستوى باباً في البحث ، إلا أن السياق في المعالجة يأتي موحِّداً وموحَّداً . فهو لا يقع في النظرة الأحادية الجانب حيث تُرى الثورة من زاوية المصلحة والطبقة ، أو ترى من زاوية النص الديني معزولاً عن دوره التاريخي في علاقته بالجماعة تمثلاً واستجابة وثقافة ، أو تُرى من زاوية السلطة والسياسة في علاقتها

بالبرامج والأحزاب والمؤسسات .

إن « الواقع التاريخي للجماعات الثقافية ونتائج التغيرات الاجتماعية » (الفصل الثالث من الباب الأول) يرتبطان بثوابت « الجذور الفكرية » وامتداداتها في وعي الجماعة ونضوجها ومؤسساتها : التشيع وعقائد الشيعة الأمامية ، ودور المجتهدين والحوزات والمراكز العلمية (الباب الثاني) . وهذا وذاك يرتبطان بالممارسة والمواقف والمؤسسات وبرامج العمل (الباب الثالث) .

على ان الخصوصية المذهبية التي يعالجها المؤلف لا تذهب في التحليل الملموس للواقع مذهب الاندراج في التجزئة المذهبية . فهي جزء من الفكر الاسلامي الموحِّد . « لقد شكّل العامل الديني (الاسلام) كفكر وثقافة عاملاً توحيدياً مهمًا لجماعات السكان الاسلامية . فطغت وبدرجة مهمة الدعوة للجهاد ضد الانكليز على الاختلافات المذهبية والاثنية ، وعلى العزلة بين المناطق وأدت إلى انحسار التناحر بين عدد من العشائر المتعادية ومن ثم انضمام بعض من أيّد الانكليز منها إلى القتال في صفوف الثورة . هذا فضلاً عن دفع العديد من أفراد القبائل (والشبانة) إلى التمرد على زعمائهم الموالين للانكليز بدوافع إسلامية » (ص ٢٠٣) .

وكل هذا يمتاز بمنهجية تنشد الحقيقة وتبحث عنها بإخلاص وقلق . فلا « نظرية جاهزة » تدخل التاريخ في قوالب ، ولا خطاباً سلفياً ينفي نفسه خارج التاريخ المعاصر ويتقوقع في نص يستعاد سياسة انكفاء. انها منهجية «طلب العلم ولو في الصين» حيث نرى المؤلف يجهد في استخدام مناهج علوم اجتماعية حديثة بغض النظر عن أصلها الجغرافي والتاريخي ، وفي الوقت نفسه يغوص في الواقع ، واقع الجماعة في انتمائها الثقافي ويعايش هذا الانتماء معايشة حميمة ومن الداخل .

إنه إذاً إخلاص الباحث لموضوعه وقلق العالم في بحثه عن الحقيقة . وانطلاقاً من الاخلاص والقلق تبقى نسبية الحقيقة التاريخية في علم التاريخ صنواً لمقولة الفقيه في مصطلح الحديث : « أنا لا أدري لمن العلم . . . والله أعلم . . . » ففي مواجهة النظرة الكلية الساكنة الواثقة « بعلمها » ثقة عمياء لدرجة تبرّر في بعض الفلسفات والبلدان التحكم برقاب البشر تارة باسم « حرية الفرد » وتارة باسم جهاز « العقل المخطط » يبرز موقف القلق والتحفز والنقد من أجل الاقتراب المستمر من الحقيقة .

ولا أظن أن عبد الحليم الرهيمي الذي قام ببحثه هذا وقدّمه رسالة ماجستير في التاريخ في الجامعة اللبنانية ببيروت ، وفي ظروف صعبة وقاهرة ومأساوية ، أنه كان بعيداً عن هذه الروح المتوثبة من أجل الاكتشاف . إنه ، وإذ نال على عمله درجة امتياز ، لا أحسب أنه اكتفى ، بل أجزم أنه ابتدأ . . . إنها بداية موفقة ننتظر منها المزيد . .

والله ولي التوفيق

وجيه كوثراني

بيروت في ١٠/ ٧/ ١٩٨٤

المقدمة

شهد الربع الاول من القرن العشرين ، ظهور حركة فكرية وسياسية اسلامية ، تزعمها العلماء المسلمون الشيعة « المجتهدون » في النجف وكربلاء والكاظمية[1] .

كانت الارهاصات الأولى لهذه الحركة ، قد بدأت تظهر منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وتمثلت في إطلاق الدعوة لمقاومة الغزو الثقافي والتغلغل الاقتصادي الأوروبيين ، وقد تجلى ذلك في النشاط الفكري ونشر عدد من المؤلفات الموجهة لنقد الحضارة الغربية والتحذير من مخاطر غزوها للمجتمعات الاسلامية . وكان الشيخان جواد البلاغي ورضا الطهراني من أبرز علماء النجف الذين اهتموا بهذا الموضوع . أما المظهر السياسي لهذه المقاومة فقد تمثل في موقف السيد حسن الشيرازي ، المرجع الأعلى للمسلمين للشيعة آنذاك ، من « قضية التنباك » في إيران ، بإفتائه تحريم استعمال التبغ ، الذي منح الشاه إحدى الشركات البريطانية امتيازاً باحتكاره .

ومنذ مطلع القرن العشرين أخذت تتوضح ، بشكل أكبر ، المعالم الفكرية والسياسية ، لظهور الحركة الاسلامية ، لا سيما بعد قيام الثورة الدستورية في إيران ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ وانعكاس آثارها على العراق ، بعد إعلان كبار المجتهدين ، وفي مقدمتهم الشيخ كاظم الخراساني ، تأييدهم ودعمهم لهذه الثورة ، والإفتاء بأن الخروج

(١) نعني بالحركة الاسلامية هنا ، مجمل نشاط ومواقف العلماء ورجال الدين في المجال الديني ـ السياسي ، وهي حركة لا تقوم على نمط التراتب الحزبي النخبوي الحديث ، بل تستند على الدور القيادي العضوي للعلماء في علاقتهم مع الناس الذين ينصاعون لأوامرهم وفتاويهم . وقد اتخذت الحركة ، في بعض الاحيان ، اشكالاً تنظيمية ، بإقامة جمعيات وهيئات يقودها العلماء .